كما يهوذا كذلك الإعلام

حقائق الإنجيل واستغلالها لاختلاق الحدث الإعلاميّ

تبثّ المحطة الأجنبية الفضائية المتخصصة National Geographic برنامجا وثائقيا بعنوان "إنجيل يهوذا"، مرتين في الأسبوع طيلة شهر نيسان. يتمحور حول موضوع هذا البرنامج حدث إعلامي انتشر عبر أبرز المجلات والجرائد العالمية، وأدّى إلى طرح أسئلة عدّة بما يخص المصداقية التاريخية للعهد الجديد وقيمة التعليم المسيحي في الكنائس. ما يلفت الانتباه أن توقيت هذا البث يأتي في موسم احتفالات عيد الفصح والقيامة إذ أنّ أثناءه يزيد اهتمام المؤمنين بالتعمق في إيمانهم. إلا أن هذا البرنامج يأتي مشككاً بأهم معتقدات المسيحيين الإيمانية وبتقليدهم. في هذه المرة، وخلافًا لكتاب دان براون ولفيلم المخرج ميل غبسون اللذين تطرّقا إلى شخص يسوع الناصري، يُسلَّط الضوء على شخص يهوذا وعلى ما يسمى بـ "إنجيل يهوذا". ما هو أصل هذه الوثيقة؟ متى كُتِبت وأين؟ ما هو مضمونها وما هو تـأثير هذا المضمون على المسيحيين؟ هذا ما نحن في صدد معالجته في هذا المقال من خلال التطرق إلى أهم النظريات التي استند إليها منتجو البرنامج المذكور.

تمّ اكتشاف النسخة الوحيدة التي وصلت إلينا من "إنجيل يهوذا" في كهف بالقرب من مدينة المِنيا المصرية، في العقد السابع من القرن الماضي. واشتراها تاجر تحف وأثريات من مدينة زوريخ السويسرية في السنة ٢٠٠٠. تحتوي هذه المخطوطة على واحدة وثلاثين صفحة موضوعة في اللغة القبطية، وهي لغة مصرية مطعّمة باليونانية القديمة تعود لحقبة الامبراطورية الرومانية. توصّل مؤخرًا فريق من الباحثين، تحت إشراف البروفيسور رودولف كاسر، الأستاذ المتقاعد من جامعة جنيف والمختصّ باللغة القبطية، إلى ترميم المخطوطة وترجمة مضمونها. أعلن هؤلاء الباحثون، منذ بضعة أشهر، نتائجَ أعمالهم، وقالوا إن هذه المخطوطة تعود، على الأرجح، إلى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، وذلك استنادًا إلى نتائج فحص الكاربون ١٤. ثمة العديد من الوثائق القبطية القديمة التي تمّ العثور عليها في منطقة مصر، منها الوثائق التي دعيت إنجيل توما وإنجيل فيليبس وإنجيل المصريين وإنجيل مريم المجدلية وإنجيل الحقيقة. تنتمي هذه "الأناجيل" إلى مكتبة نَجع حمّادي الشهيرة التي اكتُشفت في السنة ١٩٤٥ ونُشرت نصوصها في اللغات المعاصرة ابتداءً من السنة ١٩٧٨.

تنتمي الوثائق القبطية المكتشفة حتى يومنا هذا إلى جماعات غُنُوصية منتشرة بشكل خاص في مناطق مصر القديمة. يعود المصطلح "غُنوصيّ" إلى الكلمة اليونانية "غنوسيس" (Gnosis) التي تعني بالعربية "المعرفة". كان الغنوصيون يعتقدون بوجود مصدر سامٍ للخير اسمه العقل الإلهي. يحمل كل إنسان في داخله شرارة من هذا العقل الإلهي، إلا أن العالم المادي يمنعه من التعرّف إليها. لم يكتفِ الغنوصيون باعتبار العالم الجسدي والمادي عالماً سُفليًّا، كما اعتقدت مجمل المدارس الفلسفية اليونانية آنذاك، بل شدّدوا أيضًا على أن هذا العالم شريرٌ، وكل ما يتصل به هو شرير أيضا، كالجسد والزواج والجنس، بصرف النظر عن مسبِّب وجوده، سواء أكان إلهاً خالقًا، أم وسيطًا، أو شيطانًا.

من أبرز الفروقات بين تعليم الغنوصية وتعليم المسيحية نظرتهم الخاصة لمسألة أصل الشر في العالم. يعتقد المسيحيون أن الله هو إله صالح، خلق عالمًا صالحًا وخيّرًا، وأن الإنسان استغلّ حريته فأدخل الخطيئة والفساد إلى العالم ما سبّب الألم والخلل في نظام الطبيعة. أما الغنوصيون، فقد نسبوا شرّ العالم إلى إله خالق قصد إيجاد عالم فاسد. لذلك توصّلوا، استنادا إلى هذه المعتقدات، إلى تصوير بعض الشخصيات الوارد اسمها في العهد القديم على أنهم أبطال وقدوة رغم أعمالهم الشريرة. نذكر منهم قايين (الذي قتل أخاه هابيل) وعيسو (أخا يعقوب الكبير الذي تخلى عن بكريته مقابل صحن من العدس). وفي هذه الرؤية الغنوصية التي تُظهر رضى الخالق عن وجود الشر في العالم، تدخل تماما شخصية يهوذا ودوره المسيء إلى شخص يسوع الناصري. تفسِّر هذه الرؤية رفض الكنيسة الأولى لهذه التعاليم التي تتناقض مع الرؤية المسيحيّة للإنسان والخليقة. أما أيّة اعتبارات أخرى لتفسير هذا الرفض فهي من نسيج خيال صاحبها لغاية في نفسه ربما.

كانت الجماعات الغنوصية ذات طابع نخبوي، غير منفتحة على العالم، بل تقتصر على مجموعة من المبتدئين بتعليمهم. واعتبر الغنوصيون أنفسهم مختارين ومتميّزين عن أي تجمع دينيّ آخر. هذا هو السبب الرئيس لبقاء نصوص الجماعات الغنوصية مكتومة. لا يمكننا توصيف الوثائق الغنوصية بوثائق مسيحية، إذ أنها تعود إلى جماعات توفيقيّة (syncretistic) تجمع اعتقاداتها من ديانات عدة، منها المسيحيّة واليهودية والديانات الرومانية والفلسفة اليونانية. منذ نشوء الغنوصية أظهر المسيحيون رفضهم لوثائقها، وقالوا بعدم انسجامها مع الإيمان المسيحي. يندرج "إنجيل يهوذا" في هذه المجموعة من الوثائق التي لها قيمة تاريخية كبيرة لأنها تساهم في معرفة الحركة الغنوصية ولكنها لا تشكل أي خطر على الإيمان المسيحي كما تعلّمُه الكنيسة.

ما يرد في هذا البرنامج عن إنجيل يهوذا يتناغم مع الاعتقادات الغنوصية؛ يهوذا هو الوحيد الذي "يعرف"، وهو مَن يتسلّم من يسوع الأمر التالي: "سوف تقدّم الجسد البشري الذي أرتديه ذبيحةً". وبالفعل، يشير هذا النص الغنوصي إلى أن يسوع ليس إنسانًا حقيقيًّا، ولكنّه يلبس جسدًا بشريًّا، وبفضل يهوذا سيتحرّر منه. علاوة على ذلك، يهوذا "يعرف" أن البشرية كلها سترفضه على مدار القرون، باستثناء الغنوصيين طبعًا لأنهم يعرفونه ويعرفون مضمون إنجيله.

يذكر القديس إيريناوس الذي من ليون (+٢٠٠ الميلادي) وجود النزعة الغنوصية، وذلك في كتابه "ضد الهرطقات"، الذي يتطرّق فيه إلى بدعة القايينيين. في الكتاب الأول، الفصل ٣١، يقول إيريناوس إن القايينيين شدّدوا على "معرفة" يهوذا المميزة وعلى أنه أتم رسالة سريّة عندما أسلم المسيح إلى السلطات اليهوديّة؛ وأن هذه المعلومات ترد في قصة خرافية سمّاها أصحابها "إنجيل يهوذا". إلا أننا لا نقدر أن نجزم حتى الآن أن "إنجيل يهوذا" الذي ذكره إيريناوس هو نفسه الذي نحن في صدد دراسته، لأنّه، وحسب ما جاء في البرنامج الوثائقي، لا أحد يدري ما هو مصدره: هل هذه الوثيقة كتبت باليونانيّة وترجمت، أم إنها وضعت باللغة القبطيّة؟

هل لرواية إنجيل يهوذا أية مصداقية تاريخيّة؟ إذا ما راجعنا الأناجيل القانونية نلاحظ عدم التوافق على السبب الذي دفع بيهوذا إلى تسليم يسوع. يروي متى أن يهوذا سلّم يسوع من أجل المال (مت ٢٦: ١٤-١٥)، ولا يأتي مرقس على ذكر السبب (مر ١٤: ١٠-١١)، بينما لوقا ويوحنا يؤكدان أن الشيطان دخل فيه ودفعه إلى فعل التسليم (لو ٢٢: ٣؛ يو ١٣: ٢٧). علاوة على ذلك، لا نجد رواية موحّدة لطريقة موت يهوذا. فبحسب إنجيل متى، يشنق يهوذا نفسه (مت ٢٧: ٥). ويذكر سفر أعمال الرسل أن يهوذا "وقع على رأسه منكسًا وانشقّ من وسطه" (أع ١: ١٨). هذا الاختلاف في السرد الروائي يعود إلى أنّ العهد الجديد لا يهتمّ في وصف الأحداث كوقائع تاريخية مجرّدة، بمقدار ما **يفسّرها تفسيرًا لاهوتيًّا**. ولكن، إذا اعتمدنا مناهج علم التاريخ الحديث، يمكننا أن نستنتج أن القاسم المشترك في هذه الروايات يؤكّد أمرين أساسيين: الأول أنّ يهوذا سلّم يسوع، والثاني أنه انفصل عن مجموعة الرسل الإثني عشر إثرَ ذلك. وما يعزّز المصداقية التاريخية لهذين الأمرين هو بالضبط الاختلاف في تفاصيل الروايات الإنجيلية حول يهوذا، لأن هذا الاختلاف يؤكّد شهادة موحّدة تنبع من تقاليد آتية من مصادر مختلفة، حسب مبدأ تعدّد الشهادات (multiple attest) الذي يعتمد عليه علم التاريخ. لابد من أن نذكر أن كتّاب العهد الجديد يقدمون قراءة للأحداث التاريخية من منظار إيماني تتبلور في قراءة أسفار الكتاب المقدس كافّة.

بناء على ذلك، يمكننا تناول إحدى النقاط الجوهرية التي تطرّق إليها البرنامج الوثائقي، ألا وهي التهمة بأنّ مسؤولية الاعتداءات على الشعب اليهودي من قِبَل المسيحيين عبر التاريخ تقع على ما يعلّمه العهد الجديد، وبصورة خاصة على تعليم إنجيل يوحنا. ويستنتج منتجو البرنامج أن إنجيل يهوذا قد يُحدث تغييرًا هامًّا إذ إنّه يعيد لشخصية يهوذا (وفي العبرية، اسم يهوذا يشتق من اسم اليهود) دورًا إيجابيًّا بين الرسل. هذا النوع من التحليل يبتعد كل البعد عن إطار الكلام المذكور في النصوص الكتابية، ويُفهم فقط في إطار التفسير الحرفيّ للكتاب المقدس. ولو طبّقنا هذا النهج التفسيري الحرفيّ على نصوص العهد القديم، لوجدنا أنّ العهد القديم قد علّم الكراهية ضد الأمم غير اليهودية، وأنه برّر القتل من أجل الحصول على الأرض بحقّ إلهيّ. لذلك، لا يمكننا أن نقرأ الكتاب المقدس إلا في إطار قانونه الذي حدّده تقليد الكنيسة، وبمناهج تفسيرية تعتمد العقل والفكر

النقديّ. لا يسمح العهد الجديد بأيّ موقف كراهي تجاه أي إنسان، ولا يعلّم العنصرية ولا التمييز. ويكفي أن نذكر كخلاصة لنهج تفسير يسوع للأسفار المقدسة النص الآتي الذي ورد في إنجيل متى:

> "أما الفريسيون فلما سمعوا أنّه أبكم الصدوقيين اجتمعوا معًا. وسأله واحد منهم وهو ناموسيّ ليجربه قائلاً: يا معلّم أية وصية هي العظمى في الناموس؟ فقال له يسوع: تحبّ الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها: تحبّ قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كلّه والأنبياء." (مت ٢٢: ٣٤-٤٠)

في هذا النص، يعلّم يسوع أن علاقة الإنسان بالله وبقريبه مبنيّة أولاً على المحبة كما يُعرَّف عنها في أسفار الشريعة والأنبياء. لا شك في أن الصورة التي يرسمها "إنجيل يهوذا" عن يسوع تختلف كل الاختلاف عما ترويه الأناجيل الأربعة القانونية. ولكن البرنامج الوثائقي وصف مضمون "إنجيل يهوذا" بـ أصيل (authentic). والصفة "أصيل" تتردّد مرات عديدة بمعاني مختلفة أثناء البرنامج. فماذا يعني إذا قيل أن المخطوطة أصيلة؟ هل يُقصد التلميح إلى أنّ كاتبها كان يهوذا الاسخريوطي؟ أو أن رواية يهوذا حول يسوع هي ذات أصالة؟ أو، بكل بساطة، يُقصد أنّ المخطوطة تحتوي على كتابة غنوصية أصيلة تعود إلى القرنين الثالث أو الرابع الميلاديّين؟ يعرف الأخصائيّون أن درجة الأصالة التي قد تنالها هذه المخطوطة تتمحور حول تعلّق مضمونها بالفكر الغنوصي فحسب، وليس بأصالة الكاتب، ولا بمصداقية روايتها حول يسوع.

لاشكّ في أن البحث في نصوص "إنجيل يهوذا" سيساهم في فهم أفضل للنزعات الدينيّة والفلسفيّة داخل الإمبراطورية الرومانية التي عاصرت المسيحية. من جهة أخرى، لن تفيدنا هذه المخطوطة في التعرّف على شخص يهوذا التاريخي بطريقة أفضل، لكونها لا تعتمد وقائع تاريخية موثوقة. كما أنّها لا تؤثّر لا من قريب ولا من بعيد على جوهر الإيمان المسيحي كما تدّعي الدعاية الإعلانيّة للبرنامج.

إن تلميح منتجي البرنامج الوثائقي باستمرار إلى نظرية مؤامرة الكنيسة على كشف بعض الحقائق الخاصة بحياة يسوع وتلاميذه، والتي يسندون إطلاقها زوراً إلى القديس إيريناوس، ليس له أيّة جذور علميّة ولا تاريخيّة، حتى وإن كان الموضوع مشوّقًا جدًّا بالنسبة إلى دُور نشر الكتب والمجلات وإلى مُعدّي ومنتجي الأفلام السينمائية. وبالفعل، يمكن لأي شخص أن يحصل على نسخة من الأناجيل الغنوصية من أية مكتبة متخصصة.

لقد أدّت نظريات المؤامرة إلى ارتفاع نسبة الأرباح في التسعينات من القرن الماضي عندما أصرّ القائمون على الإعلام العالمي على كشف "أسرار" مخطوطات قمران أي مخطوطات البحر الميت. أما كتاب دان براون حول "أسرار" يسوع والكنيسة، فقد أدّى إلى حركة تجارية ضخمة ليس لها سوابق. وليس صدفةً أن الموعد المختار لكشف نصوص "إنجيل يهوذا" يتزامن مع فترة عيد الفصح المسيحي ويسبق الإطلاق العالمي لفيلم "شيفرة دافنشي" في ١٩ أيار القادم. هذا الاخراج التسويقيّ يُوقع الجماهير في حمّى الاستهلاك الجَماعيّ، الأمر الذي يدرّ أرباحًا عملاقة لشركات الإعلام وإن كان ذلك على حساب الإنجيل والإيمان المسيحيّ.

إن هذه النظريات حول يهوذا ليست بجديدة. ففي العصر الحديث ظهرت صور جديدة ليهوذا تُبعده عن شخصية يهوذا الخائن المذكورة بتكرار في الأدب والفنون. يجدر، على سبيل المثال، ذكر المسرحية الغنائية Jesus Christ Superstar من العام ١٩٧٣، التي يلعب فيها دور يهوذا رجل أسود، ويقول عند تسليم يسوع "بالحق لم آتِ إلى ههنا بإرادتي أنا" للدلالة على أنه لم يشأ تسليمه. كما أننا نذكر أيضًا رواية نيكوس كازنتزاكيس، "تجربة المسيح الأخيرة" (١٩٥١)، التي صورها سينمائيًّا مارتن سكورسيسي في السنة ١٩٨٨. في هذين العملين، يأخذ يهوذا دور ضمير المسيح، فيطالبه بأن يتمم رسالته المسيانية، أي أن ينظم ثورة شعبية من أورشليم. وفي هذا الإطار، نستذكر أيضًا رواية تيلور كالدويل بعنوان "أنا يهوذا" في العام ١٩٧٧.

لقد تعددت الاتّهامات ضدّ الكتاب المقدس منذ زمن بعيد، كما تعددت منذ نهاية القرن الماضي النصوص المشككة بشخص يسوع المسيح. لكن الكتاب المقدّس سيبقى ثابتا أمام كل تلك التحديات لأن رسالته متينة ومنسجمة في كل أبعادها، ولأن حافزه الأول هو إعلان محبة الله وأعماله من أجل الإنسان، من خلال يسوع المسيح وعمل الروح القدس في الكنيسة. مَن درس الكتاب المقدس علمياً عرف أنه من المستحيل اعتباره كتابًا مزيفًا أو مضللاً، بل هو كتاب أصيل، يخاطب الجميع ويدعوهم إلى التأمل بالخيرات التي وضعها الله في الإنسان وفي الخليقة كلّها.

دانيال عيّوش
أستاذ الكتاب المقدس في معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي في جامعة البلمند